نظرات لن تُمحى

لا يزال الحزن يسكن عينيه، يحتضن نظراته كصديق حميم لا يفارقها، رغم مرور كل تلك السنوات، لا تزال ذاكرتي -أيضًا- تختزن تلك الأيام التي لن تُنسى..!

تبعثر إخوتي في زوايا البيت، حتى أخي الرضيع غفلت عنه أمي اليوم، وأوكلت أمره إلى أختي ذات العشرة عقود، لقد امتلأ بيتنا بالأقارب والجيران، اشتكت قدماي من عدد المرات التي ذهبت فيها بأكواب الشاي إلى أبي ومن معه، حول أمي وجدتي تحلقت النساء المُتَّشحات بالسواد، بعد أن بكت كل منهن همها، تبادلن أطراف الحديث كالجالسين في مقهى، سمعتُ إحداهن تهمس إلى الأخرى وقد وضعت منديلًا على فمها:

_ يقولون إن الرجل مات بالوباء المنتشر هذه الأيام..!

فردّت الأخرى عليها، وقد وضعت طرف طرحتها على فمها:

_ لا بد من قضاء الواجب، ماذا سنفعل..؟!

ثم أدلت ثالثة بدلوها في الحديث قائلة:

_ ما حزن عليه أهله، التركة تُنسي الحزن يا حبيبة.

انفضّ الجمع أخيرًا، وبدأ البيت يتنفس الصعداء بعد انتهاء مراسم العزاء، انتقل جدي -بعد أن التهم الوباء جسده- إلى مثواه الأخير دون أن يودّعه أحد، لم يلازمه في فترة مرضه بالقاهرة سوى(علي) أخي الأكبر الذي سيصبح طبيبًا بعد أيام قلائل.

وقبل أن تنطفئ نار الحزن في بيتنا، اشتعلت نار أخرى عندما طالبت عماتي بنصيبهن في تركة جدي، ماطل أبي في البداية، ثم

كشف عن نواياه، فبدأ مسلسل النزاع والخصام.

خاصم أبناء عماتي بيتنا، حُرمت من رؤيتهم واللعب معهم، كما حُرمت جدتي التي رأيت دموعها لأول مرة عندما كانت تتحدث مع أبي ذات مساء:

_ لا تعادي أخواتك يا ولدي، لا تأكل حقهن.

_ لا حق لهن عندي، أنا من حافظت على تلك الأرض ورويتها بعرقي، إن شئن أعطيتهن ما يعادل نصيبهن مالًا.

_ خاف الله يا بني.

لكن أبي أشاح بيديه، وتركها دون تعليق.

لم يفلح أحد في إقناع أبي بإعطاء الحق لأصحابه، حاول كثيرون أن يكونوا وسطاء خير في لمّ شعث الإخوة، غير أن طمع والدي حال دون ذلك، حاول أخي (علي) مع أبي كثيرًا في هذا الأمر.

_ هل علمتك؛ لتعدّل على أبيك..؟

_ العفو يا أبي، لكني أناقشك فقط، هذا حقهم بشرع الله..

احتد النقاش بينهما، فغضب أبي وأقسم ألا يتحدث أحد في هذا الأمر بعد اليوم.

مرض أبي -ذات يوم- أصابته لعنة الوباء الذي انتشر كالنار في الهشيم، انتقل إلى المستشفى، استمر بها أيامًا، ثم عاد إلى البيت لإكمال رحلة العلاج، تغير أبي قليلًا، لا بل تغير كثيرًا، ما عاد يصرخ في أمي صباح مساء، استطعت اللعب بحرية مع أصدقائي دون أن أحمل هم غضبه عليّ حين أعود، أصبحت أرى أسنانه، إنه يضحك، بدا أبي وكأنه ألطف من ذي قبل.

لـم أسـتمتع بـذلك التغيـر كثيـرًا، إذ سـرعان مـا امتثـل أبـي للشفاء، ما لبث أن عاد إلى سابق عهده وكأن تغييرًا لم يلمّ به.

بعد أيـام انتقل الوبـاء إلـى أخـي الطبيـب المنتظـر، حُجـز فـي المشفى، أهالت أمـي التـراب علـى رأسـها، وانطلـق لسـان جدتي بجملهـا الحزينـة التـي قالتهـا يـوم وفـاة جـدي، أعطـى أبـي حـق عمـاتي، وهـو يرجـو مـنهن العفـو والمسـامحة، قـرأت الحـزن والانكسار فـي عينـي أبـي لأول مـرة، ولا زلـت أرى تلـك النظـرات فـي عينيه وقد مضى على وفاة أخي أكثر من عشر سنوات.